الدرس الأول: مدخل: فقه اللّغة (نشأة المصطلح، مفهومه) والفرق بين فقه اللّغة وعلم اللّغة والفيلو لوجيا

تمهيد:

إنّ اللغة خاصية إنسانية، بها تميّز الإنسان عن سائر المخلوقات. ولأهميتها في حياته دأب على دراستها في مستوياتها المختلفة، وما تفرّع عنها، فظهرت علوم جليلة، من بينها "فقه اللغة". هذا الأخير الذي جعل اللغة موضوعا له. وبالمقابل ثمة علمان آخران يشاركانه إياها هما "علم اللغة"، و"الفيلولوجيا ". فهل هما مرادفان له، أم ثمّة اختلاف بين الثلاثة؟ ولئن ثبت الاختلاف فما طبيعته؟

للإجابة على التساؤل المطروح سيتمّ تناول "فقه اللغة" بالتعريف، فالحديث عن نشأته، ثمّ عقد مقارنة بينه وبين "علم اللغة" و"الفيلولوجيا" لرسم حدود كل علم. والجزم إمّا بالترادف أو ضدّه.

1-تعريف فقه اللغة:

أ-لغة: إنّ مصطلح "فقه اللغة" مركّب من جزأين؛ أولهما "فقه" وثانيهما "اللغة". وللوقوف على مفهومه اللغوي الدقيق يجب تتبّع الاثنين.

الفقه في معاجم العربية:

- «فقِه الرّجل يفقَه، فهو فقيه. والجمع فقهاء، وقالوا فقُه في معنى الفقه أيضا، وفقِه عنّي، أي فهِم عنّي»
- «وكلّ علم بشيء فهو فقه»
- «يُقال: رجل فقيه، وقد فقُه يفقَه فقاهة إذا صار فقيها وساد الفقهاء...ورجل فقيه: عالم»

إذن الفقه في اللغة-في ضوء ما عُرّف به في معاجم العربية-بمعنى العلم والفهم عموما. وقد ورد لفظ "الفقه" في القرآن الكريم عشرين مرة كانت كلّها بالمعنى اللغوي الذي ذكرناه، اللهمّ في موضع التوبة؛ حيث قيّد فلفظ الدين، وذلك في قوله تعالى:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة/122)؛ أي: ليكونوا علماء به.

ومن شواهده في القرآن قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ (الأنعام/25)

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام/65)

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ (هود/91)

﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الفتح/15)

على الرّغم من عموم دلالة الفقه إلّا أنّ العرف قد جعله خاصا بالشريعة؛ من ذلك قولنا: الفقه، وأصول الفقه، وفقه العبادات، وفقه المعاملات...إلى غير ذلك، ثمّ صار الفقه -وهو مفرد دون إضافة-دالّا عليها. قال ابن جنّي(392ه): «الفقه في الأصل مصدر فقِهتُ الشيء، أي عرفته، ثمّ خصّ بعلم الشريعة من التحليل والتحريم، وكما أنّ بيت الله خُصّ به الكعبة وإن كانت البيوت كلّها لله» إذن لقد أصاب اللفظ تغيّر بأن تخصّصت دلالته تشريفا للعالم بحدود الله.

اللغة في معاجم العربية:

ممّا عرفت به اللغة في معاجم العربية أنّها:

- «اللّغة واللّغات واللّغون: اختلاف الكلام في معنى واحد»
- «لغا يلغو لغوا تكلّم»

أي هي والكلام أمر واحد لا فرق بينهما. وفي ذلك تأكيد على الطبيعة الصوتية للغة حتّى عرّفها ابن جنّي(292ه) بقوله: «أمّا حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم» وذلك ليس ببعيد عمّا عرّفها به ابن خلدون(808ه) إذ قال: «اعلم أنّ اللّغة في المتعارف هي عبارة المتكلّم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لسانيّ ناشئ عن القصد بإفادة الكلام» إنّ "أغراض" ابن جنّي هي "مقصود" ابن خلدون، و"أصوات" الأول هي "عبارة المتكلّم" عند الثاني متفقين على أنّ اللغة ظاهرة إنسانية ذات طابع صوتي لها غاية هي نقل ما يجول في ذهن المتكلّم إلى السامع حتّى إن كان مجرّد الرغبة في التواصل أو التعبير عن مكنونات النفس.

ب-فقه اللغة اصطلاحا:

يعرّفها رمضان عبد التوّاب بقوله: «تطلق كلمة "فقه اللغة" عندنا الآن على العلم الذي يحاول الكشف عن أسرار اللغة، والوقوف على القوانين التي تسير عليها في حياتها، ومعرفة سرّ تطوّرها، ودراسة ظواهرها المختلفة، دراسة تاريخية من جانب، ووصفية من جانب آخر... وهو ما يطلق عليه في الغرب اسم Philology»

وقيل: «يطلق فقه اللغة في الاصطلاح على العلم الذي يعنى بدراسة قضايا اللغة؛ من حيث أصواتها، ومفرداتها، وتراكيبها، وفي خصائصها الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، وما يطرأ عليها من تغييرات، وما ينشأ من لهجات»

انطلاقا من التعريفين يمكن القول: إنّ فقه اللغة هو العلم الذي يهتمّ باللغة وكلّ ما يتعلق بها بدءا من نشأتها، فنموّها واستمرارها، وآلياتها في ذلك، وكلّ ما يطرأ عليها في مستوياتها؛ الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والتركيبية، ولهجاتها المختلفة، وعلاقتها بباقي اللغات، وغير ذلك ممّا يتعلّق بها من قضايا. ويقابلها في الإنجليزية مصطلح Philology، وفي الفرنسية Philologie.

2-فقه اللغة الظهور والنشأة:

للإشارة فإنّ الحديث في هذا العنصر سيخصص للعلم العربي بدءا بظهور المصطلح، والقول: إنّ أول من استعمل "فقه اللغة" مصطلحا هو ابن فارس(395ه) في القرن الرّابع الهجري، وذلك في كتابه " الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" ثمّ تلاه الثعالبي(429ه) الذي عنون كتابه " فقه اللغة وأسرار العربية" والذي ينقسم إلى شقين؛ أوّلهما معجم معاني والثاني معقود لبعض خصائص العربية. وذلك لا يعني أنّ العرب لم يؤلّفوا في فقه العربية وإنّما لم يطلقوا المصطلح عنوانا على أعمالهم، ولعلّ خير مثال على ذلك كتاب الخصائص لابن جنّي(392ه) الذي تناول من قضايا العربية أكثر-بكثير-ممّا تناوله ابن فارس والثعالبي، مقسما إياها على أبواب كاد يلمّ فيها بكلّ ما يتعلّق بمباحث فقه اللغة؛ وممّا ناقشه موضوع نشأة اللغة، وذلك في باب سمّاه: باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح؛ حيث عرض مختلف النظريات مرجحا الإلهام والتوقيف كما التواضع والاصطلاح

لقد كان ظهور فقه اللغة منطقيا؛ إذ كانت الحاجة ملحة إلى علم يجمع ما تفرق من دراسات متعلقة باللغة العربية في؛ فهذه الرسائل اللغوية عموما والدلالية خصوصا، وهذه كتب في إعجاز القرآن اللغوي، وأخرى في القراءات القرآنية، وثالثة في لهجات العربية، ورابعة في النّوادر، دون إعفال ما ألّف في الاشتقاق وغريب القرآن واللغة، وغيرها كثير لكن يبدو أنّ مصطلح فقه اللغة لم يستهو علماءنا القدامى؛ فلم يصلنا سوى الكتابين المذكورين-الصاحبي في فقه اللغة، وفقه اللغة وأسرار العربية-بهذا العنوان. وواصل العرب تأليفهم في اللغة وخصائصها بتسميات مختلفة حتّى جاء العصر الحديث فعاد المصطلح للظهور مع مؤلفات عدد من العلماء والدّارسين العرب، من ذلك:

-فقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي

-فقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك

-دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح

-دراسات في فقه اللغة العربية للسيد يعقوب بكر

-الوجيز في فقه اللغة لمحمد الأنطاكي

-فقه اللغة لعبد الحسين المبارك

-فصول في فقه العربية لرمضان عبد التوّاب

3-الفرق بين فقه اللّغة وعلم اللّغة والفيلولوجيا:

من أكبر المشاكل التي يواجهها الباحثون فوضى المصطلحات؛ الناتج عن تعريبها من اللغات المختلفة، ذلك ما أدّى إلى تداخل بعضها. ومن تلك الأخيرة" فقه اللغة" و"علم اللغة" والفيلولوجيا"؛ إذ اختلف موقف اللغويين العرب منها على مذاهب.

أ-فريق رادف بين "فقه اللغة" و"علم اللغة": من هؤلاء **علي عبد الواحد وافي** الذي له كتابان" علم اللغة" و"فقه اللغة". حيث يظهر أنّه لا يفرّق بيم المصطلحين على غرار **محمد المبارك.** وقريب من موقفهما ما تبنّاه صبحي الصّالح؛ إذ قال: «من العسير تحديد الفروق الدّقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة؛ لأنّ جلّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء من الشرق والغرب، قديما وحديثا، وقد سمح هذا التداخل أحيانا بإطلاق كلّ من التسميتين على الأخرى... وإنّه ليحلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين ألّا يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئا، وأن يعمّموها على جميع البحوث اللغوية، لأنّ كلّ علم لشيء فهو فقه» فهو يرى أنّ مباحث العلمين متداخلة ممّا صعّب التفرقة بينهما، مع تفضيله مصطلح "فقه اللغة".

ب-فريق فرّق بين "فقه اللغة" "علم اللغة": من هؤلاء **عبده الرّاجحي** في كتابه "فقه اللغة في الكتب العربية" هذا الأخير الذي يبيّن الفرق بين العلمين كون علم اللغة يدرس اللغة باعتبارها غاية، في حين يدرسها فقه اللغة باعتبارها وسيلة إلى غاية أخرى، فميدانه أوسع وأشمل؛ إذ الغاية النهائية لفقه اللغة هي دراسة الحضارة، ودراسة الأدب هذا عند الغرب أمّا عند العرب فالغاية مختلفة؛ إذ هي فهم النصوص القرآنية. ومنه فعمل فقهاء اللغة العرب أقرب منه إلى علم اللغة.

وللإشارة فإنّ ما يقابل "فقه اللغة" عند هو "Philology" وهي كلمة إغريقية مركّبة من شقين؛ أحدهما"Philos"وتعني الصديق، والأخرى"Logos" وتعني الخطبة أو الكلام، وكأنّ العلم يقوم على حبّ الكلام للتعمّق في دراسته، لمعرفة قواعده وأصوله وتاريخه. وكان هذا المصطلح مرتبطا أشدّ الارتباط باللغتين؛ الإغريقية واللاتينية في فترة إحياء العلوم الممهّد لعصر النهضة؛ فكان يعني دراسة اللغتين من حيث القواعد والتاريخ والأدب ونقد النصوص.

إنّ الذي نلاحظه أنّ خلطا كبيرا قد وقع بين المصطلحات الثلاث؛ فقه اللغة وعلم اللغة الفيلولوجيا، والذي نقوله: لا يجب التشدّد في الأمر؛ فإنّ لكلّ علم مناخ نشأ فيه، ولكلّ أمّة ما يميّزها من حيث الفطر والحضارة، وليس بالضرورة أن يكون علم اللغة هو فقه اللغة، ذلك أنّ فقه اللغة في حدّ ذاته مختلف فيه بين علماء الغرب؛ فهو-فيما نقله عبده الرّاجحي عن روبنز-يعني عند الإنجليز الدّراسة المقارنة بين اللغات، في حين يعني عند الألمان الدّراسة العلمية للنصوص الأدبية القديمة خاصة اليونانية والرومانية

والقول: ليس بضرورة أن نطابق بين العلوم الثلاثة، وإن كانت تعمل متضافرة لدراسة اللغة المعيّنة (فقه اللغة) واللغة عموما (علم اللغة) لأجل ذاتها باعتبارها غاية الدراسة؛ للتعرّف على خصائصها والقوانين التي تحكمها (علم اللغة) من جهة، ولمعرفة الأدب والثقافة والحضارة التي أنتجتها (فقه اللغة).